رواية "هوليود "

غواية الحانات وسفالة الأستوديوهات السينمائية.

عبد الإله الجواهري

إذا كنت سينمائيا، أو عاشقا لعالم السينما، فلا شيء سيجلب لك الدفء والسعادة، ويؤنسك في لياليك الباردة، وأوقاتك الميتة المقتطعة من بهجة الحياة ولذة الوجود، غير صلف وقلة أدب تشارلز بوكوفسكي، من خلال قراءة عمله الأدبي الإبداعي المعنون ب"هوليود"(1)؛ الرواية الملعونة، ككاتبها، بفضاءاتها وأحداثها وشخصياتها المنحوتة بعناية، النص اللذيذ الغارق حد السخط والتمرد، في قول ونشر الحقائق الصادمة، عن الواقع المحيط بنا، بأحداث ووقائع لا تتبرم من النظر شزرا في وجوهنا المكفهرة، الوجوه التي تحاول جاهدة أن تحافظ على سمتها ووقارها الشاحب، انسجاما مع الأخلاق المنفعلة السائدة، والرصانة المصطنعة، المستندة بشكل هش، إلى تراث غني من المواعظ الحسنة، وضرورة التمسك بالعروة الوثقى، وقول الكلام المحمود الحميد عن الذات والآخر.

" استمر جان بول بالدوران بالوتيرة نفسها والسرعة نفسها وهو يصرخ قائلا: جميعنا نحظى بذلك الثقب أليس كذلك؟ هناك في الأسفل في المنتصف تقريبا، صح؟ هناك حيث ينبجس الخراء من أجسادنا، أو هذا ما نتمناه على الأقل، أليس كذلك؟ خذوا فتحة الخراء تلك منا وسنموت! فكروا بحجم الخراء الذي يخرج منا طوال حياتنا! الأرض تمتص خراءنا في هذه اللحظة! لكن البحور

والأنهار تلفظ روحها وهي تبتلع خراءنا. نحن وسخون، وسخون، وسخون، أنا أكره جنس البشر كله! كلما مسحت الخراء عن ثقب طيزي أكره جنس البشر" (ص41).

الرواية نص جميل مبهر، وسرد تفوح منه روائح النتانة، عن حياة كاتب مشهور، يطلب منه كتابة سيناريو فيلم، أي فيلم، مقابل مال مغر، ليجد نفسه هكذا دون سابق إنذار، داخل عوالم سوريالية موبوءة ومحمولة على أكتاف بشر ملؤهم الادعاء والجشع والفراغ والخواء، بشر هوليود والأضواء والأهواء الزائفة، أناس السينما والتأنق والتألق والأضواء القاتلة. لا شيء يدعوه للراحة أو الاطمئنان داخل هذه العوالم الموبوءة، غير الإسراف في الشرب كالعادة، والهدوء القاتل داخل أحشاء الحانات، والركون للهواجس العدمية المنفلتة من عقال العقل، والكوابيس المدمرة للذات والروح والوجدان...

"كنت أعلم أنه كان يوجد حضارة كاملة من الأرواح الضائعة تعيش داخل الحانات وخارجها، تعيش حياتها ليلا نهارا، وفي كل وقت إلى أن تأتي ساعتها وتفارق هذا العالم. لم أقرأ يوما أي شيء عن هذه الحضارة، لقد أغفلها الجميع. لذلك قررت أن أكتب عنها بالطريقة التي أتذكرها بها، هكذا بدأت آلتي الكاتبة القديمة الطيبة بالاستجابة إلي، وبدأت الكلمات تتدفق" (ص 120).

لقد بدأ بوكوفسكي الكتابة بكل ما أوتي من قوة إبداع ومخيلة، مستمدا عناصر القصة من حياة سكير (وهي حياته الخاصة) لا هم له غير معاقرة الخمرة، ومشاكسة النادل، وشتم السكارى لحد المصارعة والضرب.

المتأمل الجيد، فيما كان يكتب السارد هنري شينسكي، خاصة منه العارف بحياة تشارلز بوكوفسكي، ووفائه لحياة التمرد والحانات، ومدى عشقه للشرب ليل نهار، سيعلم جيدا أنه كان ينقل فصولا مختارة من حياته الخاصة، ويضمنها النص السينمائي، وفي نفس

الآن النص الروائي الذي سيكتبه فيما بعد، يحكي عن مزاجه الخاسر، ومغامراته مع الكتابة وملاقاة عشاق أدبه هنا وهناك:

"بدأ النص السينمائي بالتشكل، كنت أكتب عن شاب يريد أن يكتب ويشرب، لكن معظم نجاحاته كانت مع الزجاجة وحسب، ذلك الشاب هو أنا نفسي "(ص119).

بعد الانتهاء من الكتابة وتسليم النص، كان الكاتب/ السارد يعتقد أن مهمته انتهت، وأنه سيقبض حينا المال الذي كان يحلم به؛ لكن معاملات وحيوات ساكنة هوليود لا تشبه في شيء معاملات وحيوات الناس في العالم الفسيح، عالم الناس المستقيمين الأوفياء لعهودهم والتزاماتهم. هنا سيتعرض بكل وقاحة لكثير من التسويف والوعود الكاذبة، ويطول الزمن، وهو ينتظر أن يقبض مقابل ما كتب، خاصة مع المشاكل التي اعترضت تنفيذ مشروع الفيلم، وانتقاله من يد ليد، ومن شركة إنتاجية لشركة أخرى، وما تبع ذلك من مشاكل فنية وتقنية، وقبل ذلك قانونية، ودخول المحامين على الخط بحربائيتهم وقوانينهم التي يعرفون تشكيلها وتدجينها حسب مصلحة موكليهم:

"معظم الأغنياء والمشاهير ومن يسمونهم علية القوم كانوا في الواقع مجموعة من الأغبياء والسفلة والأوغاد المنحطين... هؤلاء كتل ضخمة من الخراء تسير على أرجل. لكن بالنسبة إلى العوام كانوا صنو الجمال وظلال الله على الأرض، لذا كانوا يعاملونهم بكل إجلال وتبجيل" (ص 137).

أما الطامة الكبرى (حسب السارد) فهم الصحفيون الذين لا هم لهم سوى نقل الأكاذيب والتفنن، والنقاد الذين يبدعون في رفع حواجز الإبداع بما يسمح لهم أن يبقوا متحكمين في معاني الخلق، وذلك بوضع مفاهيم نقدية متعالية عن الواقع، وعن كيفية صنع الأفلام؛ مفاهيم تلائم هواجسهم المريضة المأفونة، وتجعلهم متحكمين في الساحة السينمائية، بما يخدم مصالحهم في ابتزاز المبدعين، والتمتع بالسير والجولان، في الندوات

واللقاءات والمهرجانات، ودخول قاعات العرض بالمجان، بينما أغلب هؤلاء النقاد، لا يعرف المعنى الحقيقي للسينما، ولا كيفية صنع عمل سينمائي، والقلة التي جربت أن تركب صهوة الإبداع فشلت، فقررت أن تصب جام غضبها على من تفوق ونجح:

"ولكن ما الفرق بين ناقد سينمائي وبين شخص عادي يرتاد صالات السينما؟ الجواب: الناقد السينمائي يدخل صالة السينما دون أن يدفع ثمن التذكرة...؟" (ص 313).

إنها الميزة الوحيدة التي تميز الكتبة المتهافتين على ولائم العروض الفيلمية والاحتفالات السينمائية عن غيرهم من عموم الناس وكل العاشقين للفن السابع..

السارد لم يُصَفِّ الحساب فقط مع أصحاب الياقات والسجائر الرفيعة، وكل مدعي الفن والسينما، ومعهم الصحفيون ومحترفو النقد والانتقاد، بل تعداه للكتاب والكتبة، شعراء وروائيين وباحثين:

" كنت محتاجا إلى الكتابة وكأنني مصاب بمرض ما، لكنني مع هذا لم أحب أن أسمي نفسي كاتبا. أغلب الظن أنني قد التقيت بكثير من الكتاب لأعرف أنهم يمضون وقتا في الحط من شأن بعضهم أكثر من الوقت الذي يقضونه في الكتابة. كانوا مولولين، يثرثرون وينشرون الشائعات، ومنهم من كن عوانس وعجائز متصابيات مليئات بالحقد والسم والغرور. أهؤلاء هم المبدعون والمفكرون في عالمنا؟ أكان الوضع هكذا دائما؟ على الأرجح نعم. ربما كانت الكتابة نوعا من الشكوى. الفرق الوحيد أن البعض كان يشتكي بصورة أفضل من غيره" (ص141).

بعيدا عن عالم الرواية، قريبا من عالم بوكوفسكي، نستنتج سخط وتمرد هذا الكاتب على عموم الكتاب والأدباء، الذين أحببناهم وأحببنا أعمالهم عبر العصور، بل الكراهية الثابتة لعوالمهم الأدبية المنمقة الخاضعة لنفس القواعد، في ضرورة أخذ القارئ بعين الاعتبار، وعدم الخروج عن المألوف في الكتابة والتأليف، مهما تغيرت الأزمنة والأمكنة

والقضايا والرؤى والصياغات، سخط وتمرد يجعلانك تستمتع بكآبة خارجة عن معنى الإجماع، وتدخلك في متاهات اللذة المغموسة في دوار السكارى، والمنقوعة في هلوسات المدمنين على الماريخوانا، والملونة بقلة حياء العاهرات ويأس المقامرين ومرض المهووسين باغتصاب الأطفال، وجشع المضاربين الباحثين عن النجومية في أروقة الأستوديوهات المصنوعة بكثير من الأحلام والأوهام والأكاذيب والادعاءات والورود البلاستيكية..

"استرسل جون لوك في حديثه. كان يتصرف بسوداوية ويلعب دور العبقري. من يدري، قد يكون عبقريا. لم أرد أن أتعامل مع الوضع بحقد. لكنني احتملت الكثير من العباقرة الذين أفسدوا عليّ حياتي وأنا في المدرسة: شكسبير، تولستوي، إبسن، جورج برنارد شو، تشيخوف، كل هؤلاء المغفلين. والأسوأ منهم: مارك توين، وهوثورون، والأخوات برونتي، ودرايسر، وسينكلير لويس، كل هؤلاء يجثمون فوق صدرك كبلاطة إسمنتية، وأنت تحاول أن تخرج وتتحرر منهم. كانوا كالآباء الأغبياء ثقيلي الوطأة الذين يصرون على تطبيق القوانين والقواعد والأساليب التي تجعل الميت يتشنج في قبره"(ص 43).

لقد صفى تشارلز بوكوفسكي، على لسان السارد، حساباته بشكل جد مهذب، مع الآباء وحتى الأمهات منهم والأخوات. فضح الأدب المنمق الخالي من عيوب القول أو جرح المشاعر الرهيفة، الأدب الهارب من واقع انبجس منه دون أن يمثله إلا بنسب جد ضئيلة، الأدب المحشو في ألبسة مصوغة بعناية فائقة، أدب لا يمكن أن يستسيغه من يعيش ليل نهار، على إفراغ، يوميا، عشرات القنينات من الجعة وكؤوس النبيذ في الجوف المفتوح على خواء بدون قرار، من لا يكترث بالمواضعات والمواصفات المجتمعية، إلا بالقدر الذي يجعل الروح تتحرر وتحيا في السماوات البعيدة، وتشذ عن قاعدة استمتع بطفولتك وشبابك أو رجولتك، لأن الحياة الحقيقية لا تبدأ، حسب قناعة السارد، إلا بعد منتصف الستين:

"الحياة تبدأ في الخامسة والستين، لا تستمع إلى خلاف من يقول ذلك"(ص 87).

فعلا، الحياة تبدأ في التلون بصبغة جديدة حقيقية، منتصف الستين من العمر، لكن قد تمتلك معناها في العشرين، أو ربما قبل ذلك، إذا اكتشف وقرأ صاحبها ما كتب الماركيز دي ساد، وكيو ميشيما، وميلان كونديرا، وسيلين، وجورج باطاي، ونجيب سرور، ومحمد شكري، والبقية المتبقية من ملاعين الأدب.

يجد السارد/ الكاتب نفسه في مأزق أضواء السينما، ووسائل الإعلام التي تتهافت بكل لهفة على أخبار المخرجين والممثلين النجوم وخروج الأفلام للقاعات، تهافت أصابه بكثير من الدهشة، عالم الشوبيز وبيع الخواء والخراء للناس:

"كان الهاتف يرن كل يوم، الكل يريد أن يجري مقابلات مع الكاتب. لم أتخيل يوما أنه يوجد هذا الكم الهائل من المجلات السينمائية، ووسائل الإعلام التي تهتم بالأفلام وتتابع أخبارها. وكأن الأمر أشبه بمرض: ذلك الاهتمام الأبله بوسيلة لم تحقق شيئا سوى الفشل والإخفاق، في إنتاج شيء يستحق الذكر. لقد أصبح الناس معتادين على رؤية الأفلام الخرائية لدرجة لم يعودوا يدركون معها أنها خرائية" (ص 229).

ورغم تهافت الصحفيين والنقاد من أجل محاورته، باعتباره كاتب سيناريو الفيلم، ومشاعر الغرور تجرفه وتحاول أن تقنعه بأن كتاب النصوص السينمائية أناس جد مهمين، فإن الواقع كان يكذب كل ذلك، لأنه يجد نفسه في كثير من الأحيان يعيش داخل دوائر التهميش والاحتقار، خاصة عندما يقارن ما سيقبضه ككاتب بما يقبضه الممثل، أو يقارن نوعية المعاملة التي يتلقاها في فضاءات التصوير والاحتفالات والعروض:

" كنا أنا وسارة نعامل وكأننا من مواطني الدرجة الثانية. ولكن، مرة أخرى، ما الذي نتوقعه عندما يكون بطل الفيلم يكسب أكثر من 750 مرة من كاتب نص الفيلم؟ لا يتذكر الجمهور من

كتب نص الفيلم، يتذكرون فقط من أفسد النص أو من جعل النص عظيما، يكون هذا إما المخرج أو الممثل أو أي ابن شرموطة آخر. كنا أنا وسارة من سكان الأحياء الفقيرة.. من قاع المدينة.. من الحضيض" (ص 321)، لهذا يرفع صوته بالتعجب والصراخ الداخلي:

"يا إلاهي، فكرت، وماذا عن الكاتب؟ الكاتب الذي يمنح هؤلاء الكائنات الدم واللحم والعظام والعقل... أليس الكاتب هو من يجعل قلوبهم تنبض؟ أليس الكاتب من يضع الكلمات في أفواههم ليتكلموا؟ أليس هو من يميتهم ويحييهم؟ أليس هو من يفعل بهم ما يريد ؟"(ص 240).

لهذا يستبعد، مستقبلا، التعاون مع السينمائيين والكتابة للسينما:

"- أتظن أنه سيأتي يوم تكتب فيه نصا سينمائيا آخر؟ سألتني.

- أشك في ذلك. يتوجب عليك عند كتابة نص سينمائي ارتكاب الكثير من التنازلات والمنيكات. وعليك أيضا التفكير من وجهة نظر الكاميرا وكيفية إيصال الفكرة إلى المشاهدين.." (ص297).

لهذا يقرر أن يبتعد عن عالم الزيف ويمضي لحياته العادية، يرتمي في أحضان الكتابة والشرب والرهان في مضمار السباق:

"مضيت إلى مضمار السباق ونسيت كل شيء عن الفيلم والممثلين وطاقم العمل وغرفة المونتاج. كان المضمار يبقي حياتي بسيطة، بالرغم من أن "يبقي حياتي غبية" هو التعبير الأكثر دقة." (ص 316). لكن قبل رهان السباق والشرب، فإنه يعي ويؤكد على أن الرهان الحقيقي، رهان الفوز، هو رهان البساطة في الكتابة:

"ولكن هناك رهانا واحدا مهما، رهان واحد فقط سيحقق لك الفوز. الفوز يزيل عنك كل الضغوطات، يحررك من كل الآثام والذنوب وضروب الندم. البساطة هي سر الوصول إلى الحقيقة المطلقة، إلى فعل الأشياء كما يجب، إلى الكتابة، إلى الرسم... إلى الفن الحقيقي. البساطة جذر الحياة وأساسها.. بالبساطة ندرك معنى الحياة ونسبر أغوارها. أعتقد أن مضمار السباق يبقيني مدركا لذلك." (ص 316).

ومع هذا الوعي ومن خلاله، فإن فعل الكتابة ليس بالأمر السهل، الشيء الذي كان يجعله بل ويفرض عليه اللجوء لمتابعة سباقات الخيول داخل المضمار، أو نزالات المصارعة والقتال بالأيدي على شاشات التلفزيون أو في الحانات، لأن ذلك يذكره بالكتابة في بعض النواحي:

"ما تحتاج إليه في الكتابة تحتاج إليه للقتال بالأيدي، الموهبة والشجاعة والحالة البدنية، الفرق الوحيد هو أن ما تحتاج إليه في الكتابة هو الحالة الذهنية والروحية، وليس البدنية. الكاتب لا يكون كاتبا طوال الوقت، لا يولد كاتبا ويبقى كاتبا. عليه أن يصبح كاتبا في كل مرة يجلس فيها خلف الآلة الكاتبة. الجانب الصعب في بعض الأحيان هو العثور على كرسي والجلوس عليه. أحيانا لا تكون قادرا على الجلوس مثلك مثل أي شخص آخر في العالم.. الكثير من العقبات تقف في طريقك: المشاكل الصغيرة والمشاكل الكبيرة، الضرب المستمر والنياكة اليومية. تلك هي الرسالة التي وصلتني من مشاهدات الشجار والقتال بالأيدي، أو من مشاهد الجياد وهي تجري وتتسابق، أو التفكير في الطريقة التي تتغلب فيها النكات وحس الفكاهة على الحظ العاثر، وكيف تتغلب التعاويذ على المضمار وعلى المخاوف الشخصية الصغيرة خارج المضمار. أنا أكتب عن الحياة، يا له من قول مضحك، لكن ما يدهشني فعلا هو الشجاعة الهائلة التي يظهرها بعض ممن يعيشون هذه الحياة. هذا ما يدفعني إلى الاستمرار." (ص 338).

دفعت تجربة الكتابة للسينما بما لها وما عليها، أي بحلوها القليل ومرها الكثير، السارد إلى أخذ قرار كتابة رواية تستمد عناصرها من وحي التجربة السينمائية، لأن ذلك سيحرره ولاشك مما عاشه وكابده، وسيضمد بعضا من خيباته وقناعاته في السينما والسينمائيين، وسيشفي مشاهداته السقيمة من الواقع الفني المختلف، وستجعله في نفس الآن يتذكر وجوها وأحداثا لطالما نغصت عليه الحياة الهنية، طيلة مدة الاشتغال وحضور عمليات التصوير، الحياة التي كان يحياها من قبل، ويستمتع بها كما يجب، الحياة التي

فقدها لمدة طويلة. ولعل من حسنات معاشرة السينمائيين والعيش في كنف السينما هي متعة الشرب والأكل هنا وهناك بالمجان، خاصة في الحفلات المرافقة لعمليات توقيع العقود، أو الاحتفاء بالنجوم، أو الاحتفال بالعروض الأولى للفيلم قبل خروجه للجمهور:

-"ما الذي ستفعله الآن؟ سألت سارة.

-بخصوص ماذا؟

-أقصد أن الفيلم قد صار وانتهى بالفعل.

-هذا صحيح.

-طيب ما الذي ستفعله الآن؟

-طيب، اللعنة، سأكتب رواية عن كتابة النص السينمائي وتصوير الفيلم.

-أظن أنك تستطيع فعل ذلك.

-أعتقد أنني أستطيع.

-ماذا ستسميها؟

-هوليود.

-هوليود؟

-أي نعم (ص373).

هكذا ينهي الروائي روايته، وهي نهاية بمثابة بداية لمشروع كتب أصلا، ومن سوء حظنا أننا قرأناه قبل وبعد الكتابة، وعشنا فصولا من فصوله وهي مجرد إشاعات وأحداث واقعية سينمائية، تتطلع لتكون مستقبلا روائية. لكن دعوني، في سياق العبث الذي يغمرنا ونحن نقرأ النص الروائي، أن أضرب أسداسا في أخماس، وأخمن من باب التعالم والحذلقة بالمعرفة الروائية والسينمائية، والاختباء وراء صفة مخرج التي اكتسبتها منذ مدة ليست باليسيرة، لأقول متسائلا بكثير من السذاجة:

هل رواية "هوليود" هي نتاج تجربة تصوير فيلم "بارفلاي"، الذي أخرجه المخرج باربيت شرودر، ولعب بطولته ميكي رورك وفاي دونواي، عن سيناريو لشارلز بوكوفسكي نفسه، أم أنني مجرد مهووس بالبحث في حيوات كتّاب وأدباء، ومحاولات مطابقة ما يكتبونه مع حيواتهم الخاصة، وتجاربهم الشخصية.؟

إنه سؤال وجدت له الإجابة وأنا أبحث عن نسخة الفيلم المتحدث عنه في الرواية، وأكتشف حقيقة ما سرده علينا الروائي بكل تفاصيلها، لأقع في حيرة ثانية، وأسئلة عديدة من بينها: هل "هوليود" رواية أم سيرة ذاتية...؟.

هامش:

1-تشارلز بوكوفسكي، "هوليود"، ترجمة شادي خرماشو، دار التكوين، الطبعة 1، دمشق- سوريا، 2018.